❁ -تَصْدِير

﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَل هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟!! ؛ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَل هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟!! ؛ قُل حَسْبِيَ اللَّهُ ؛ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون ❁ ﴾ .

-[سُورَةُ الزُّمُر/ الآيَة : ٣٨]-

....

يُعَافِى اللهُ بَعْدَ بَلاءِ جَهْدٍ

وَيُنْهِضُ بَعْدَمَا يَبْلَى السَّقِيمُ

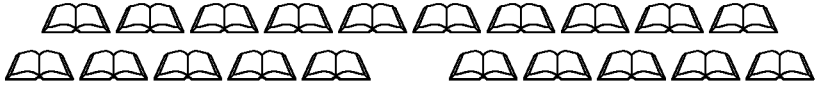

❁ - مَدْخَلٌ

خَلِيلَيَّ لا وَاللهِ مَا مِن مُلِحَّةٍ
تَدُومُ عَلَى حَيٍّ وَإِن هِيَ جلَّتِ
فَإِن نَزَلَت يَوْمًا فَلا تَخْضَعَن لَهَا
وَلا تُكْثِرِ الشَّكْوى إِذَا النَّعْلُ زلَّتِ
فَكَم مِن كَرِيمٍ قَد بُلِي بِنَوَائِبٍ
فَصَابَرَهَا حَتَّى مَضَت وَاضْمَحَلَّتِ
وَكَانَت عَلَى الأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةٌ
فَلَمَّا رَأَت صَبْرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ

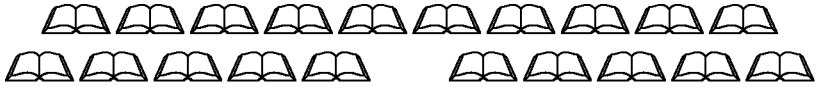

❁ - كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع :

بسم اللهِ الرحمن الرحيم

فِى بَعْضِ الأَحَايين : تَمُوتُ الأَفْكَارُ فِى عَقْلِ الكَاتِبِ ؛ وَيَعْجَزُ عَن إِيجَادِ سَبِيلٍ لِلْخَوْضِ وَالشُّرُوعِ فِيمَا يَبْتَغِى وَيُرِيد ؛ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الأُدَبَاءِ وَالكُتَّابِ جَمِيعاً... ؛ وَلِكَوْنِ الأَمْرِ عَلَى مَا ذَكَرْت ... ؛ فَلا أَجِدُ غَيْرَ البِدَايَةِ المُبَاشِرَةِ لِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ .[1] (١) .

ثُمَّ !!... ؛ لِلْمُؤَلِّفِ أَن يُهْدِى كِتَابَهُ لِمَن يَشَاء ... ؛ وَلَهُ أَن يَكْتُبَ كَلِمَاتَ الإِهْدَاءِ بِالأُسْلُوبِ الَّذِى يَرُوقُهُ وَيُعْجِبُهُ ... ؛ ثُمَّ ... ؛ التَّصْدِيرُ قَد يُعَبِّرُ عَن الكَاتِبِ نَفْسَهُ ... ؛ يَدُلُّكَ عَلَى كُنْهِ مَشَاعِرِه ؛ أَو عَلَى حَقِيقَةِ حَيَاتِهِ ؛ أَو عَلَى مَاهِيَّةِ العَمَلِ وَطَبِيعَةِ الكِتَاب .

---

[1] (١) ـ كُنْتُ قَد صَنَعْتُ لِهَذَا الكِتَابِ بَعْدَ التَّصْدِيرِ وَالمَدْخَلِ كَلِمَةً بِعُنْوَان : (بَيْنَ يَدَى الكِتَاب) ؛ وَأُخْرَى بِعُنْوَان : (مَنْهَجِى فِى إِنْشَاءِ هَذَا الكِتَاب) ؛ وَهُمَا مِنَ الطُّولِ وَالإِفَاضَةِ بِمَكَانٍ مَذْكُور ؛ فَرَأَى القَائِمُ بِأَعْبَاءِ هَذَا المَشْرُوعِ العِلْمِىِّ أَن أَضَعَ لِلْكِتَابِ مُقَدِّمَةً مَوجَزَةً ... ؛ فَصَنَعْتُ مَا ارْتَأَى ؛ هَذَا مِن جِهَةٍ ؛ وَمِن جِهَةٍ =.....

ثُمَّ ... ؛ المَدْخَلُ إِمَّا أَن تُنَاطَ فِكْرَتُهُ بِمَادَّةِ الكِتَاب ؛ أَو أَن تُهَيِئَ القَارِئَ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِن كَلِمَاتٍ وَأَفْكَارِ المُقَدِّمَة [٢] .

ثُمَّ ... ؛ المُقَدِّمَةُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ بِهِ لِلكَاتِبِ ؛ لَهُ أَن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن ذَاتِهِ وَنَفْسِهِ ؛ عَن حُبِّهِ وَعِشْقِهِ ؛ عَن حُزْنِهِ وَيَأْسِهِ ؛ عَن أَمَلِهِ وَطُمُوحَاتِهِ ؛ عَن فِكْرِهِ وَثَقَافَتِهِ ؛ عَن حَادِثَةٍ خَاصَّةٍ أَو عَامَّةٍ ... ؛ نَعَم ؛ لَهُ أَن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن أَيِّ شَيْءٍ يُرِيد .

ثُمَّ ... ؛ التَّمْهِيد ؛ إِنَّمَا جُعِلَ لِلتَّعْرِيفِ بِمَادَّةِ الكِتَابِ وَمُحْتَوَاه .

ثُمَّ ... ؛ التَّوْطِئَة ؛ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَن مَاهِيَّةِ الفَصَاحَةِ وَالبَلاغَة ؛ وَهِيَ كَلِمَةٌ نَافِعَةٌ كَتَبَهَا الدُّكْتُور عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ حَسَن حَبَنَّكَة المَيْدَانِيُّ الدِّمَشْقِيُّ ((ت سَنَة ١٤٢٥ هـ)) ؛ قَيَّدَهَا بِكِتَابِهِ ((البَلاغَةُ العَرَبِيَّة)) (١) [٣] .

---

[٢] أُخْرَى : مَا أَحْبَبْتُ أَن أَحْرِمَ القَارِئَ مِمَّا جَادَت بِهِ قَرِيحَتِي ؛ مِن أَدَبٍ وَفِكْرٍ وَآرَاء ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرَغُ مِن مَقَالاتِ الشَّيْخِ المَنْفَلُوطِيِّ فِي آخِرِ الكِتَابِ ؛ إِلاَّ وَوَضَعْتُ الإِهْدَاءَ الَّذِي كَانَ مَوْضِعُهُ فِي بِدَايَةِ العَمَلِ ؛ وَلَكِنِّي أَخَّرْتُهُ ؛ لِطُولِهِ مِن جِهَةٍ ؛ وَلأَنَّهُ سَيَسْبِقُ كَلِمَتِي : (بَيْنَ يَدَي الكِتَاب) ؛ وَالصِّلَةُ بَيْنَهُمَا قَوِيَّةٌ بِلا رَيْب ؛ هَذَا مِن جِهَةٍ ثَانِيَةٍ ؛ ثُمَّ وَضَعْتُ كَلِمَتِي : (مَنْهَجِي فِي إِنْشَاءِ هَذَا الكِتَاب).

- تَنْبِيه : كَلِمَاتُ هَذِهِ المُقَدِّمَةِ الَّتِي تَرَاهَا الآن ؛ هِيَ مَا اقْتَطَعْنَاهُ مِن (مَنْهَجِي فِي إِنْشَاءِ هَذَا الكِتَاب) ؛ وَالَّتِي سَتَرَاهَا بَعْدَ الفَرَاغِ مِن أَصْلِ العَمَل ـ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى ـ ؛ وَاللهُ المُسْتَعَان .

ثُمَّ صَنَعْتُ فَصْلاً بِعُنْوَان: ((أَقْوَالٌ فِي البَلاغَة)) .

ثُمَّ مَادَّةُ الكِتَاب ؛ وَقَد تَنَاوَلْتُ فِي هَذَا الجُزْء: ((عِلْم المَعَانِي)) ؛ وَعَرَضْتُهُ عَرْضَاً يَجْمَعُ بَيْنَ القُوَّةِ وَسُهُولَةِ التَّنَاول ؛ فَلا هُوَ بِالضَّعِيفِ المَرِيض ؛ وَلا هُوَ بِالضَّخْمِ العَرِيض ؛ بَل هُوَ كِتَابٌ عَصْرِيٌّ مَقْبُول ؛ وَظَنِّي أَن سَتَقْبَلُهُ القَرَائِحُ وَتَسْتَجِيدُهُ العُقُول ؛ وَرَبُّنَا المُسْتَعَان ؛ وَإِلَيْهِ التَّفْوِيضُ وَعَلَيْهِ التَّكْلان .

ثُمَّ لَمَّا انْتَهَيْنَا مِن عَرْضِ المَادَّة ... ؛ جَاءَ دَوْرُ الدِّرَاسَةِ التَّطْبِيقِيَّة ؛ وَمَازِلْتُ أَقُول: إِنَّ البَلاغَةَ لَيْسَت هِيَ القَوَاعِدُ وَالأُصُول !!... ؛ بَل هِيَ الإِمْعَانُ فِي تَأَمُّلِ إِبْدَاعِ الأُدَبَاءِ الفُحُول... ؛ لَوْلا قَضَاءُ السَّنَوَاتِ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِ الجَاحِظ وَابْنِ المُقَفَّع وَأَبِي حَيَّان التَّوْحِيدِيِّ وَأَمْثَالِهِم مِن أَهْلِ البَلاغَةِ وَالبَيَانِ مِن المُتَقَدِّمِين... ؛ ثُمَّ الإِقْبَال عَلَى مَا أَبْدَعَتْهُ يَرَاعَةُ مُصْطَفَى لَطْفِي المَنْفَلُوطِي صَاحِب ((العَبَرَات)) و((النَّظَرَات)) ؛ وَمُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيّ صَاحِب ((رَسَائِل الأَحْزَان)) و((أَوْرَاق الوَرْد)) و((السَّحَاب الأَحْمَر)) و((وَحْي القَلَم)) ؛ وَمَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر صَاحِب ((جَمْهَرَة المَقَالات)) ؛ وَأَضْرَابِهِم مِن المُحْدَثِين... ؛ لَوْلا هَذَا الأَمْر!!... ؛ لَمَا قَدِرْنَا عَلَى كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ وَالمَقَالاتِ

---

[٣] (١) ـ مَنْشُورَات: دَار القَلَم ؛ دِمَشْق = الدَّار الشَّامِيَّة ؛ بَيْرُوت/ الطَّبْعَةُ الأُولَى: ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م.

بِهَـذَا الأُسْـلُوبِ الَّـذِى عُرِفْنَـا بِـهِ ؛ وَلَعَلَّ أُسْـلُوبَ كِتَـابِى ((كَلِمَـاتٌ فِـى مَوْسِـمِ الخَرِيف)) هُوَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ مَقُولَتِى هَذِهِ ؛ وَإِلاَّ فَلَو عَوَّلْتُ عَلَى المَوْهِبَةِ وَحْدَهَا لَمَا قَدِرْتُ عَلَى الذَّهَابِ وَالمَجِيءِ هَكَذَا بِلا خَوْفٍ أَو هَيْبَةٍ... ؛

إِنِّى آسَفُ أَشَدَّ الأَسَفِ مِمَّا أَرَاهُ وَمِمَّا أَسْمَعُهُ!!... ؛ تَجْمَعُنِى جِلْسَةٌ مَا مَعَ فَتَىً فِى الثَّالِثَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى الخَامِسَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى السَّابِعَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى الثَّلاثِين مِثْلِى ؛ وَأَكُون قَد سَمِعْتُ مِن بَعْضِهِم أَنَّهُ يَتَعَاطَى صِنَاعَةَ الأَدَب ؛

فَأَسْأَلُهُ : مَا هِىَ الكُتُبُ الَّتِى تَخَرَّجْتَ عَلَيْهَا؟... ؛ فَإِذَا بِهِ يُجِيب ـ مَثَلاً ـ : قَرَأْتُ أَعْمَـال أَنِيس مَنْصُور وَمَـا تَرَكْتُ كِتَابَاً لِهُ ؛ وَقَرَأْتُ جُلَّ أَعْمَـال الكَاتِب رَجَـاء النَّقَّاش!!... ؛ يَقُول هَذَا وَهُوَ فَرِحٌ مُغْتَبِط!!... ؛ يَذْكُرُ أَسْمَاءَ مُؤَلَّفَاتِهِم وَهُوَ فَخُورٌ فَخْرَ مَن أَسْقَطَ القُسْطَنْطِينِيَّة وَأَوْقَعَ الرُّعْبَ فِى نُفُوسِ الجَحَافِلِ النَّصْرَانِيَّة!!... ؛ يَا لَلنَّكْبَة!!... ؛ أَنِيس مَنْصُور!!... ؛ رَجَاء النَّقَّاش!!... ؛ أَنَا قَرَأْتُ أَعْظَمَ مَا كَتَبَ أَنِـيس مَنْصُـور : ((فِـى صَـالُون العَقَّـاد كَانَـت لَنَـا أَيَّـام)) ؛ ((عَاشُـوا فِـى حَيَاتِى)) ؛ ((يَسْقُط الحَائِط الرَّابِع)) ؛ وَقَرَأْتُ لَهُ غَيْرَ مَا ذَكَرْتُ ؛ كَـ : ((طَلَعَ البَـدْرُ عَلَيْنَا)) ؛ ((عَلَى رِقَابِ العِباد)) ؛ وَكِتَابَهُ عَن الوجُودِيَّة ؛ وَغَيْرَ ذَلِك... ؛

فَمَا هِىَ لُغَتُهُ؟!!... ؛ وَمَا هُوَ أُسْلُوبُهُ؟!!... ؛ نَعَم هُوَ يُسَلِّى فِى أَوْقَاتِ الضِّيق ؛ وَعِنْدَهُ أَشْيَاء تَدْعُو المُؤَرِّخَ الأَدَبِىَّ إِلَى العِنَايَةِ بِهَا ؛ وَإِن كَانَ يُكَرِّرُ نَفْسَهُ فِى أَكْثَر مِن كِتَابٍ وَفِى غَيْرِمَا عَمَلٍ ؛ كَحَدِيثِهِ عَـن العَقَّـاد وَطَـه حُسَيْن وَتَوْفِيـق الحَكِيم ؛ فَهُـوَ

أُسْلُوبٌ ضَعِيفٌ يُشْبِهُ أَن يَكُونَ عَامِّيًّا تُجَارِيًّا!!... ؛ وَأَمَّا رَجَاء النَّقَّاش ؛ فَكُتُبُهُ وَصَلَتْنِى هُنَا فِى الرِّيَاض قَبْلَ أَن أَعْمَل فِى مُؤسَّسَة أَطْلَس - إِذ هِىَ الَّتِى نَشَرَت أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ - ؛ وَقَرَأْتُهَا... ؛ فَعَلِمْتُ شَيْئًا وَاحِدًا... ؛ أَنَّ الحَيَاةَ حُظُوظ !!... ؛ عَرْضٌ غَبِىٌّ!!... ؛ وَتَنَاولٌ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ العَقْل!!... ؛

وَأُسْلُوبٌ لا يَلِيقُ إِلاَّ بِصِبْيَانِ الكُتَّاب!!... ؛ التُّرَاثُ الأَدَبِىُّ... ؛ هُوَ سِرُّ النَّزْعَةِ البَيَانِيَّةِ البَلاغِيَّةِ عِنْدَ فُحُولِ الأُدَبَاءِ الَّذِينَ عَاشُوا فِى القَرْنِ المُنْصَرِم ... ؛ وَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يَصِيرُ أَدِيباً بَلِيغاً مِن غَيْرِ أَن يُعَايِشَ أَسْفَارَ أُدَبَائِنَا الأَوَائِلِ... ؛ فَقَد ظَنَّ مُحَالاً ؛ وَتَمَنَّى مَا لا يَكُونُ أَبَدًا !! .

مِن أَجْلِ هَذَا ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرَغُ مِن عَرْضِ مَادَّةِ عِلْمِ المَعَانِى ؛ حَتَّى صَنَعْتُ القِسْمَ التَّطْبِيقِىَّ ؛ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ فِى أَجْمَلِ وَأَبْدَعِ وَأَبْلَغِ المَقَالات الَّتِى كَتَبَهَا الشَّيْخُ الأَدِيب مُصْطَفَى لُطْفِى المُنْفَلُوطِىّ وَأَوْدَعَهَا كِتَابَهُ ((النَّظَرَات)) .

وَسَتَكُون هَذِهِ هِىَ طَرِيقَتِى فِى بَقِيَّةِ الأَجْزَاءِ الَّتِى سَأُخْرِجُهَا - إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى - ؛ وَالَّتِى تُنَاطُ بِقِسْم : ((عِلْمُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة)) ؛ فَسَيَتْلُو ذَلِك : المُنْتَخَب مِن رَسَائِلِ الرَّافِعِىِّ ؛ ثُمَّ المُنْتَقَى مِن مَقَالات أَبِى فِهْر مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر ؛ ثُمَّ يَأْتِى بَعْدَ ذَلِكَ عَبَاقِرَةُ البَيَانِ العَرَبِىِّ مِن الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِين.

قُلْتُ : وَسَيَتْلُو هَذَا الجُزْء - بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى - :

٢ - عِلْمُ البَدِيع.

٣ ـ عِلْمُ البَيَان.

٤ ـ أُصُولُ النَّظَرِيَّةِ البَلاغِيَّة.

٥ ـ فَنُّ الأُسْلُوب.

٦ ـ أُمَرَاءُ البَيَان.

٧ ـ رَسَائِلُ البُلَغَاء.

٨ ـ مَصَادِرُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة.

٩ ـ البَلاغَةُ العَرَبِيَّة: نَشْأَتُهَا وَتَطَوُّرُهَا... ؛ مَدَارِسُهَا وَأَعْلامُهَا.

ثُمَّ... ؛ أَتَيْتُ بَعْدَ المُنْتَخَب مِن مَقَالات مُصْطَفَى لُطْفِى المُنْفَلُوطِيّ بِطَلِيعَةِ كِتَابِى المَوْسُوم بِـ: ((رَسَائِلُ الدَّم)) ؛ وَهِيَ رَسَائِلٌ أَدَبِيَّةٌ تَتَشَابَهُ فِى نَزْعَتِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ بِالأَدَاءِ البَيَانِيِّ الَّذِى تَجِدُهُ فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ؛ وَقَد وَضَعْتُ الرَّسَائِلَ الخَمْسَةَ الأُولَى فِى هَذَا الجُزْء ؛ وَسَتَرَى بَقِيَّةَ الرَّسَائِلِ فِى الأَجْزَاءِ الَّتِى ذَكَرْتُهَا حَسْبَ تَرْتِيبِهَا ؛ وَرُبَّمَا أَجْمَعُهَا فِى عَمَلٍ مُفْرَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ إِن شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ فَهُوَ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِى أَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِذ هِيَ إِبْدَاعٌ غَيْرُ مَمْزُوجٍ بِنَقْلٍ أَو انْتِخَاب ؛ وَالأَعْمَالُ الإِبْدَاعِيَّةُ هِيَ الَّتِى تَبْقَى ؛ وَهِيَ الَّتِى تَكْتُبُ الخُلُودَ لِصَاحِبِهَا ؛ وَلأَنِّى أَعْلَمُ يَقِينَاً أَنَّ المَوْتَ سَيَهْجُمُ عَلَى سَاحَتِى عَمَّا قَرِيب !!... ؛ فَأَنَا أَرْجُو إِن رَحَلْتُ عَن دُنْيَا النَّاس!!... ؛ أَن تَبْقَى أَشْعَارِى و كَلِمَاتِى .

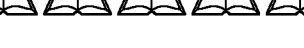

وبعد:

اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ الَّتِى نَرْجُو!!... ؛ وَرِضَاكَ الَّذِى نُؤمِّل!!... ؛ وَمَغْفِرَتَكَ الَّتِى أُرِيد!!... ؛ اللَّهُمَّ لا نَصِيرَ سِوَاك!!... ؛ وَلا مُعِينَ إِلاَّك!!... ؛ اللَّهُمَّ أَسْتَغِيثُ بِنُورِ وَجْهِكَ أَن تُبَدِّدَ ظُلُمَاتُ حَيَاتِى!!... ؛ وَأَسْأَلُكَ التَّأْيِيدَ فِى خَوْفِى وَثَبَاتِى!!... ؛ اللَّهُمَّ هَوِّن الشَّدَائِدَ وَالخُطُوب!!... ؛ وَفَرِّج البَلايَا وَالكُرُوب!!... ؛ اللَّهُمَّ عَضِّد قُوَّتِى!!... ؛ وَذَلِّل مَا صَعُبَ فِى دُرُوبِ رِحْلَتِى!!... ؛ اللَّهُمَّ وَقَفْتُ عَلَى بَابِك!!... ؛ وَرَغِبْتُ فِى سَكِينَةِ رِحَابِك!!... ؛ اللَّهُمَّ أَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيل!!... ؛ وَأَنْتَ بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيل!!... ؛ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا لا إِلَهَ سِوَاك !!.

- تَوْطِئَة:

بسم الله الرحمن الرحيم

*- الفَصْلُ الأَوَّل: الفَصَاحَة

١ - الفصاحة فى اللُّغَة:

الفصاحة عند أهل اللُّغة: البيان؛ والإفصاح: الإبانة؛ يُقال: فَصُحَ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُو فَصِيحٌ؛ إذا كانَ فى كلامِهِ قادراً على أن يُبَيِّن مُرَاده بوضوحٍ دُون عَجْزٍ؛ ولا تَلكُّؤٍ؛ أو تعثُّرٍ؛ فى نُطْقِ الألْفَاظ؛ أو فى اختيار الكلمات الدالاَّتِ على ما يُريدُ إيضاحَهُ من المعانى للْمُتَلقِّين.

ويُجْمَعُ ((فَصِيح)) على: فُصَحَاء؛ وَفِصَاح؛ وَفُصُح؛ والأُنْثَى: فَصِيحَةٌ؛ و: هُنَّ فَصَائح.

ويُقالُ - كَلامٌ فَصِيحٌ: إذا كان المُرادُ مِنْهُ واضحاً.

ويُقالُ - لسانٌ فَصِيحٌ: إذا كان طَلْقاً فى نُطْقِ الكَلامِ مُبِيناً لاَ يَتَعَثَّر.

والرَّجُلُ الفَصِيح: هُو المُنطلقُ اللِّسانِ فى القولِ؛ الَّذى يَعْرِفُ جَيِّدَ الكلامِ من رديئه.

ويُقالُ - أَفْصَحَ الصُّبْحُ: إذا بَدَا ضَوْؤُهُ واستبان؛ وأَفْصَح المُتَحَدِّثُ عن مُرادِهِ: إذا بيَّنَهُ ولم يُجَمْجِم.

وَكُلُّ ما وَضَحَ فقد أَفْصَح ؛ وَكُلُّ وَاضحٍ هُو مُفْصِحٌ.

وَفَصُحَ اللَّبَنُ : إذا أُزِيلَت الرَّغْوَةُ من سطحه فبانَ وظهَرَ.

٢ ـ الفَصَاحَةُ فِى اصْطِلاحِ عُلَمَاءِ البَلاغَة :

ذكر عُلماء البلاغة أنَّ الفصاحة تأتى وصفاً للكلمة الواحدة ؛ ووصفاً للكلام ؛ ووصفاً للمُتكلِّم ؛ فيُقال : كلمةٌ فصيحةٌ ؛ وكلامٌ فصيحٌ ؛ ومُتكلِّمٌ فصيحٌ.

....

أ ـ فَصَاحَةُ الكَلِمَة :

أمَّا الكلمة الفصيحة : فهى الكلمةُ العربيَّةُ التى تَخْلُو من أربعة عُيُوب ؛ وهى : التنافُر ؛ والغرابة ؛ ومُخَالفة القياس ؛ وكراهة السَّمع لها.

ـ العَيْبُ الأَوَّل :

وهو تنافُر حُرُوف الكلمة :

التنافُر فى الكلمة صفةٌ فيها ؛ تجعلها ثقيلة على اللِّسان ؛ يصعُبُ النُّطْقُ بها.

وهذا التنافُرُ مِنْهُ ما هُو شديدٌ غايةٌ فى الثِّقَل ؛ ومنْهُ مَا هُو دُون ذلِكَ ؛ ويحُسُّ به الذَّوق السَّليم.

ومن علامات التنافُر فى حُرُوف الكلمة أن يصعُب على معظم ألسنة الناطقين بالعربيَّة النُّطق بها.

أ ـ ومن أمثلة ما هو شديد التنافر :

ـ كلمة ((صَهْصَلِق)) ؛ يُقال ـ رَجُلٌ صَهْصَلِقُ الصَّوْتِ : إذا كان ذا صوتٍ شديدٍ ؛ ويُقالُ ـ امرأةٌ صَهْصَلِق وصَهْصَلِيق : أى : شديدةُ الصَّوتِ صَخَّابَةٌ .

ـ كلمة ((طَسَاسِيج)) جمع ((طَسُّوج)) اسمٌ للناحية ؛ واسمٌ لمقدارٍ من الوزن يعْدِلُ رُبْعَ دانِقٍ ؛ فالدَّانِق أربعةُ طَسَاسِيج ؛ وهو سُدْسُ الدِّرهم.

ـ كلمة ((اطْرَغَشَّ)) ؛ يُقال ـ اطرغَشَّ الْمريضُ : إذا بَرِىءَ من مرضه ؛ وإذا قام وتحرَّك ومشى.

ب ـ ومن أمثلة ما هو غير شديد التنافر :

ـ كلمة ((النُّقاخ)) ؛ يُقال ـ ماءٌ نُقَاخٌ : إذا كان ماءً عذباً.

ـ كلمة ((مُسْتَشْزِرَات)) بمعنى مُنفتلات.

ـ كلمة ((الْعَشَنْزَر)) وهى بمعنى الشَّديد الْخَلْقِ العظيم من كُلِّ شىءٍ ؛ وَيُقال ـ ضَبُعٌ عَشَنْزَرَة : أَى سيِّئةُ الْخُلُق.

ـ العَيْبُ الثَّانِى :

الغرابة : والغرابةُ فى الكلمة كونُها غير ظاهرة المعنى ولا مألوفةِ الاستعمال عند فُصحاء العرب وبُلغائهم فى شعرهم ونثرهم ؛ لا عند المُولَّدِين ومَن بعدهم.

والغرابة إمَّا تكون بسبب نُدْرة استعمال الكلمة عند العرب ؛ وإمَّا أن تكون بسبب أنَّ التَّوصُّل إلى المُراد منها فى الكلام يحتاج إلى تخريجٍ مُتكَلَّفٍ بعيدٍ.

أ ـ مثِّلُوا للغريب النادر بما يلى :

ـ كلمة ((مُسْحَنْفِرَة)) بمعنى ((مُتَّسِعَة)) .

ـ وكلمة ((بُعَاق)) بمعنى ((مطر)) .

ـ وكلمة ((جَرْدَحْل)) بمعنى ((الوادى)) .

ب ـ ومثَّلُوا للغريب الذى يحتاج إلى تخريجٍ مُتكلَّفٍ بعيدٍ لمعرفةِ المقصود به ؛ بقول رُؤبة بْنِ العَجَّاج يصِفُ الأنْفَ بكلمة ((مُسَرَّج)) ؛ فقال ابْنُ دُرَيْد : هو من قولِهِم للسُّيُوف سُرَيجيَّة ؛ أى : منسوبة إلى حدَّادٍ يُسَمَّى سُرَيجاً ؛ فهو يُريد تشبيه الأنْفِ فى دِقَّتِهِ واستوائِه بالسَّيْفِ السُّرَيجىِّ ؛ وقالَ ابْنُ سِيدَه صاحبُ ((المحكم)) : هو من السِّرَاج ؛ فهو يُريد تشبيهَ الأنْفِ فى بريقه ولمعانه بالسِّراج.

أقول : ويكثُر هذا التكلُّفُ المَمْجُوجُ عند كثيرٍ من الشُّعراء والكُتَّاب المُبتدئين ؛ فلا يُعْرَفُ الْمُرادُ من مُفرداتهم ؛ إلاَّ بسؤالهم عَن مقاصِدهم منها.

ـ العَيْبُ الثَّالِث :

مُخالفة الكلمة للقياس : أى سوقُ الكلمة مُخالفةً للقياسِ النَّحوىِّ أو الصَّرفىِّ.

ومن أمثلة ما هو مُخالفٌ للقياسِ فى الكلمة : فكُّ الحرف المضعَّف فى الكلمة التى يقتضى القياسُ فيها إدغامَهُما بحرفٍ مُشَدَّدٍ ؛ نحو :

ـ كلمة ((الأجْلَلِ)) ؛ والقياسُ أَنْ يُقَالَ فيها : ((الأجَلّ)) .

ومنه قول أبى النَّجم بْنِ قُدامة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِىِّ الأَجْلَلِ

أَنْتَ مَلِيكُ النَّاسِ رَبًّا فَاقْبَلِ

ومِمَّا هو مُخالفٌ للقياس : جمع ((فاعل)) وصفاً لمُذكَّرٍ عاقلٍ على ((فَواعل)) .

قالوا : ومنه استعمال الفرزدق ((نواكس)) جمعاً لـ ((ناكسٍ)) وصفاً لمُذكَّرٍ

عاقلٍ فى قوله :

وإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيتَهُمْ

خُضْعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ

وأقول : ما فى شعر الفرزدق ليس مخالفاً للقياس ؛ لأنه يُريد أَن يصف الأبصار بالنَّواكس ؛ أى : هى مُنكسرةٌ ذليلةٌ ؛ لا أَن يصف الذُّكورَ العُقلاء ؛ عَلَى أن جمع ناكس على نواكس مِمَّا اسْتُعْمِل شاذًّا عن القياس عند العرب ؛

كما قالُوا فى فَارس : فوارس ؛ وفى هالِك : هَوَالِك .

ومِمَّا هو مُخالفٌ للقياس : استعمال هَمْزَة القطْع بدلَ همزة الوصْل ؛ واستعمال همزة الوصل بدل همزة القَطْع ؛ ويكثُرُ مثلُ هذَا فى الشِّعْرِ لِمُرَاعَاةِ الوزن .

ومنه قول جميل :

ألاَ لاَ أرَى ((إِثْنَيْنِ)) أحْسَنَ شِيمَةً

عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّى وَمِنْ جُمْلِ !

فقطع همزة ((اثنين)) مع أنَّها همزة وصل ؛ وحدَثان الدهر : نوائبه ؛ وأراد بِكَلِمَةِ ((جُمْلٍ)) : فَرَسَهُ أو جَمَلَه .

ـ العَيْبُ الرَّابِع :

كون الكلمة مكروهة فى السمع : أى : كونُها مَجُوجَة فى الأسماع ؛ تأنف منها الطِّباع ؛ خَشِنَةً وَحْشِيَّةً .

ومثَّلوا لهذا العيب: بنُفور السَّمع عن كلمة ((الْحِرشَّى)) بمَعْنَى ((النَّفْس)) ؛ فعابوا على أبى الطَّيِّبِ المُتنبِّى استعمالَها فى قَوْلِهِ يمدحُ سيف الدولة:

مُبَارَكُ الاسْمِ أغَرُّ اللَّقَبْ

كَرِيمُ الْحِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

كَرِيمُ الجِرِشَّى: أى كريمُ النَّفْس .

أقوالٌ مأثورةٌ اشتملت على مُفرداتٍ غير فصيحة لِعَيْبٍ ما فيها:

١ ـ كتب بعض أُمَراء بغداد رُقْعَةً طرحها فى المسجد الجامع حين مَرِضت أُمُّهُ ؛ جاءَ فيها:

((صِينَ امْرُؤٌ وَرُعِى ؛ دَعَا لامْرَأةٍ إنْقَحْلَةٍ مُقْسَئِنَّةٍ ؛ فَقَدْ مُنِيَت بِأَكْلِ الطُّرْمُوخِ ؛ فَأَصَابَهَا مِنْ أجْلِهِ الاسْتِمْصَالُ ؛ أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهَا بِالاطْرغْشَاشِ والابْرِغْشاشِ)).

إنْقَحْلَة: أى مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ يَبِسَ جلْدُهَا وسَاءَ حَالُها .

مُقْسَئِنَّة: أى كبيرة السِّنِّ ليس لها قُدرةٌ على الحركة .

الطُّرْمُوخ: الْخُفَّاش.

الاسْتِمْصَال: إسهالُ الطبيعة .

الاطرغْشَاش والابرغْشاش: كلاهما بمعنى البُرْء من المرض .

٢ ـ جاء فى خُطْبَةٍ لابْنِ نُبَاتة ؛ يَذْكُرُ فيها أَهْوَالَ يَوْمِ القيامة ؛ قوله:

((اقْمَطَرَّ وَبَالُهَا ؛ واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا ؛ فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ .)) .

أقْمَطَرَّ وَبَالُهَا : أى اشتَدَّ وعَظُمَ ثِقَلُها.

واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا : أى اشْتَدَّ وارتَفَعَ وعَظُمَ عِقَابُهَا .

فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ : أى فَمَا سَهُلَتْ ولاَ كانَتْ طيِّبَة .

....

ب ـ فَصَاحَةُ الكَلام :

وأمَّا الكلامُ الفصيح : فهو عند عُلماء البلاغة ما كان سَهْلَ اللفظ ؛ واضح المعنى ؛ جيِّد السَّبكِ ؛ مُتلائم الكلمات ؛ فصيح المُفردات ؛ غير مُسْتكْرَهٍ ولا مَمْجُوجٍ ولا مُتكَلَّفٍ ؛ ولا مُخالفٍ لقواعد العرب فى نحوها وصرفها ؛ وغير خارجٍ عن الوضْعِ العربىِّ فى مُفرداته وتراكِيبه ؛ وليس فى كلماته تنافُر ؛

وليس فيه تعقيدٌ لفظىٌّ ؛ ولا تعقيدٌ معنوىٌّ .

قالوا : ولا بُدَّ لكون الكلام فصيحاً من أن يكون خالياً مِن أربعة عُيُوب ـ مع شرط فصاحة مُفرداته ـ ؛ وهى :

١ ـ تنافُر الكلمات عند اجتماعها ؛ ولو كانت مُفرداتها فصيحة .

٢ ـ ضعف التأليف .

٣ ـ التعقيدُ اللفظىُّ .

٤ ـ التعقيدُ المعنوىُّ .

١ ـ تنافُر الكلمات عند اجتماعها: وهو وصفٌ يعرض للكلام من جرَّاء اجتماع كلماتٍ فيه تجعل النُّطْقَ بها ثقيلاً مَجُوجَاً حال اجتماعها؛ مع كون كُلِّ كلمةٍ لَيِّنةٍ سهلة النُّطق بها.

ويُحسُّ بهذا الثِّقَلِ المَمْجُوجِ أصحابُ الذَّوق السَّليم فى نُطْقِ الكلام العربىِّ. ومن علامات التنافُر فى الكلام أن يَصْعُب على مُعظم ألسنة النَّاطقين العربيَّة النُّطق به.

ـ الأمثلة:

ـ من الأمثلة الَّتِى ذكروا أَنَّ فيها هذا العيب بِشِدَّة: ما أورده عَمْرو بن بحر الجاحظ من شعرٍ بشأن قَبْرِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّة بْنِ عبد شمس:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ

وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

رُفع لفظ((قَفْر)) مع أنه نعتٌ للفظ ((مكانٍ)) لضرورة الشِّعر؛ وخرَّجوه على أنَّه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها .

وقد جاء الثِّقَل من تكرار الرَّاء والباء فى البيت .

ـ ومن الأمثلة الَّتى ذكروا أَنَّ فيها هذا العيب دون شِدَّة: قول أبى تَمَّام:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالوَرَى

مَعِى؛ وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِى

وقد جاء ثِقَلُهُ من تكرير لفظ ((أَمْدَحْهُ)) بما فيه من حاء وهاء .

وكذلك قول أبى الطَّيِّب المُتنبِّى :

أَتُرَاهَا لِكَثْرةِ الْعُشَّاقِ ..... ؛

تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى

كَيْفَ تَرْثِى الَّتِى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ

رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِى

((رَاءَهَا)) : أى رآها ؛ قَدَّمَ وَأَخَّرَ لِضَرُورَة الشِّعْر .

((راقِى)) : اسمُ فاعلٍ من رَقَأَ الدَّمع : إذا انْقَطَع .

ومعنى البيت الثَّانى : كَيْفَ تَرْحَمُ هذِهِ الْمَعْشُوقَةُ عَاشِقَهَا وهِى تَرَى كُلَّ الأَجْفَانِ باكيَةً غيْرَ جَفْنِها ؛ فتحسبُ أَنَّ العُيُون تَذْرِفُ الدَّمع بالْخِلْقَةِ لاَ من العِشْق ؛ لذلك فلا تُسْتَثارُ فيها الرَّحْمَةُ على العُشَّاق .

وفى هذا البيت مع عيب الضرورة عيب تكرير الجيم والراء فى كثيرٍ من كلماته ؛ الأمر الذى أكسبَهُ بعض الثِّقَل.

- ومن الأمثلة التى ذكروا فيها عيبَ التنافُرِ فى الكلام ؛ أو ثِقَلَ النُّطْقِ بِهِ ؛ أَو مَجَّ الذَّوْقِ له : قول عبد السَّلام بْنِ رُغْبَان المعروفِ بديكِ الجنّ :

أُحْلُ وامْرُرْ وضُرَّ وانْفَعْ وَلِنْ وَاخْشَنْ وَأَبْرِرْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِى.

وعِلَّتُه تكرُّرُ أفعالِ الأَمْرِ فيهِ .

وأشدُّ من هذا قول أبى الطَّيِّب المُتنبِّى ؛ إذْ جَمَعَ أفْعالَ أمْرٍ دُون عاطفٍ بينها ؛ من قصيدةٍ يمدح فيها سيف الدولة :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ أحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ
زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

دفعه إلى هذا ولَعُه بالإغْرابِ والإبداع .

أَقِلْ : فعلٌ من الإقالَةِ ؛ أَنِلْ : من الإنالَة وهى العطاء ؛ أَقْطِعْ : من الإقْطاعِ بَمَنْح الأرض ؛ احْمِلْ : من قولهم : حملتُهُ على فَرَسٍ ؛ عَلِّ : من التَّعْلِيَةِ وَالرَّفْعِ ؛ سَلِّ : من التَّسْلِية والتَّرويح عن النَّفْس ؛ أَعِدْ : من الإعادة ؛ أى : فى العَطاء ؛ زِدْ : من الزِّيادة فى العطاء الثانى ؛ هِشَّ : من قولهم : هَشَشْتُ إلى كذا أَهُشُّ ؛ بِشَّ : من البشاشة وهى طلاقة الوجه ؛ تَفَضَّل : من الإفْضَال وهو عطاء الفضل ؛ أَدْنِ : من الإدناء وهو التقريب ؛ سُرَّ : أى افعلْ ما يَسُرُّ ؛ صِلِ : من الصِّلَةِ وهى العطيَّة .

وهذا أشبَهُ بمَنْظوماتِ مُتُونِ الْعِلْم ؛ وعلَّتُهُ تَكَرُّرُ أفعال فيه دُون حرف عطف بينَها ؛ فزاده ثقلاً .

ـ ومن الأمْثِلَةِ أيضاً : قول أبى الطَّيِّب المُتنبِّى فى قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ فيها عُبَيْدَ الله ابْنَ خراسان الطرابلسىِّ :

دَانٍ بَعيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ
أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

شَرِس ـ الشَّرسُ فى اللُّغة : الْعَسِرُ السَّيِّئُ الْخُلُق ؛ ويُريد أنَّه عَسِرٌ غير ليِّنٍ بالنسبة إلى الأعداء فى الحرب .

بعض هذه الصفات يُعامل بها أولياءَه ؛ وأضدادها يُعامل بها أعداءه .

وعلَّتُه إيراد صفاتٍ مُتعدِّدات على نَسَقٍ واحدٍ .

ـ ومن الأمثلة أيضاً : قول أبى تمَّام يصِفُ مَمْدُوحَهُ :

كَأَنَّهُ فِى اجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ

فِى كُلِّ جَارِحَةٍ فِى جِسْمِهِ رُوحُ

أى : هو يَقِظٌ دواماً بِكُلِّ جوارحه .

وعِلَّتُه تَعَاقُبُ الأَدواتِ فيه .

ونظيره قول أبى الطَّيِّب المُتنبِّى يصفُ فرساً :

وتُسْعِدُنِى فِى غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ

سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فى غَمْرَة : أى فى شِدَّةٍ ؛ سَبُوح : أى فرسٌ شدِيد الجرى ؛ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهِدُ : أى لَها عَلى كرمها شَوَاهِدُ مِن صفاتها.

على أن تعاقُب الأدوات قد لا يكون ثقيلاً مُستكرهاً ؛ والحكَمُ هُوَ ذوق الفُصحاء .

ـ ومن الأمثلة أيضاً قولُ ابْنِ بابك :

حَمَامَةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجِعِى

فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِن سُعَادٍ ومَسْمَعِ

يخُاطِبُ الشَّاعِرُ حَمَامَةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ ؛ فَيُطالِبُهَا بأن تَسْجَعَ لِتَسمعها مَعْشُوقَتُهُ سُعاد ؛ والسَّجْعُ هُوَ هَدِيلُ الحَمَام .

جَرْعَى : مُؤَنَّثُ أَجْرَع وهى رَمْلَةٌ لاَ تُنْبِتُ ؛ حَوْمَة : مُعْظم ؛ الجندل : الحجارة .

وَعِلَّتُه تَوالى الإِضافات ؛ إِذْ أضاف أولاً حمامة إلى جَرْعَى وأضاف أيضاً جَرْعَى إلى حَوْمَة التى أضافها إلى الجندل ؛ فتوالت الإِضافات ؛ ومن هُنا كانت عِلَّةُ الاستكراه ؛ على أن توالى الإِضافات قَد لا يكون مُستكرهاً.

....

٢ ـ ضعفُ التأليف :

وهو أن يكون تأليف الكلمات فى الجُمل أو إجراؤُها الإِعْرَابىُّ على خلاف المشهور المُتَّبَع من قواعد النَّحو ؛ أو فيه لَحْنٌ نحوىٌّ أو صرفىٌّ ؛ واللَّحْنُ فى اللُّغة لَيْسَ من فصيحها ؛ بل هو من عَامِّيها ؛ أو من نُطق الدُّخلاء على أهلها ممَّن ليسوا منها ؛ أو من نُطق أطفال الأُمَّة الذين لم يتمرَّسُوا بقواعد لُغتهم. ـ ومن أمثلة ما فيه ضعف التأليف :

أ ـ عوْدُ الضمير علَى مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبةً ؛ بينَما الأَصْلُ أن يعودَ الضميرُ علَى مُتَقَدِّمٍ فى اللَّفظ أو الرُّتبة .

ب ـ استعمال الضمير المُنفصل مع إمكان استعمال الضمير المُتَّصل ؛ واستعمال الضمير المُتَّصِل فى حالِ وُجُوبِ استعمال الضمير المُنفصل.

جـ ـ نصْبُ الفعل المُضارع أو جزمُهُ بدُون ناصبٍ أو جازمٍ .

د ـ تقديمُ غير الأَعْرَف فى الجُملة الاسميَّة على الأعْرَف .

ر ـ تقديمُ المعمول على عامله مع عدم جواز ذلك ؛ أو مع عدم وجود مُقتضٍ لَهُ بلاغيًّا .

و ـ مجيء الضمير المُتَّصِل بعد أداةِ الاستثناء ((إلاَّ)) .

ـ الأمثلة :

١ ـ قول حسَّان بن ثابت يرثى مُطْعِمَ بْنَ عَدِيّ ـ أحد رُؤساء المُشركين ؛ وكان يُدَافع عن الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ :

وَلَوْ أَنَّ مَجْدَاً أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِدَاً

مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمَا

فأعاد الضمير فى ((مَجْدُهُ)) على مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبة ؛ وهو ((مُطْعِمَا)) على خلاف قانُون التأليف المُتَّبع المشهور فى العربيَّة ؛ وهذا من العُيُوب المُخلَّة بالفصاحة .

والمعنى : ولو أنَّ مجداً مهما كان عظيماً جعل من يتَّصف به يخلُد طَوال الدَّهر ؛ لكان مَجْدُ مُطْعِم بن عدىّ جعله خالداً.

٢ ـ قول زياد بن حَمَل التميمىِّ :

وَمَا أُصَاحِبُ مِنْ قَوْمٍ فَأَذكُرَهُمْ

إِلاَّ يَزِيدُهُمُو حُبَّاً إِلَىَّ هُمُ

أى : وما أُصاحبُ من قومٍ بعْدَ قومى فأذكُر لهم قومى ؛ إلاَّ بالَغُوا فى الثناء

عليهم حتَّى يَزِيدُوهُم حُبًّا إِلَىَّ .

فلم يأتِ بالضمير المُتَّصل الذى هو ((واو)) الجماعة فى : ((يَزِيدُونَهُمْ)) ؛ بل فصله ؛ وجاء به ضميراً مُنفصلاً فى آخرِ البيت لضرورة الشِّعر ؛ وهو لفظ ((هُمُ)) ؛ وهذا من العُيُوب المُخلَّة بالفصاحة .

٣ ـ قول الفرزدق :

بِالبَاعِثِ الْوَارِثِ الأَمْوَاتِ قَدْ ضَمِنَتْ

إِيَّاهُمُ الأَرْضُ فى دَهْرِ الدَّهَارِيرِ

فجاء بالضمير المُنفصل ((إيَّاهُمْ)) ؛ مع إمكان مجىء الضمير المُتَّصلِ لضرُورة الشِّعر ؛ وهذا من العُيُوب المُخِلَّة بالفصاحة .

والمعنى : أحلفُ بالله الباعث الوارث الأموات قد ضَمِنَتْهم : أى احتوتْهُمُ الأرض فى دَهْرِ الدَّهارير .

فى دَهْرِ الدَّهَارير : أى سالف الأزمان ؛ كلمة ((الدهارير)) تأتى بمعنى أوَّل الدهر فى الزمان الماضى ـ ((لا واحد لها من لفظها)) ـ .

٤ ـ قول أبى الطَّيِّب المُتنبِّى يمدحُ بدر بن عمَّار :

خَلَتِ البِلاَدُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا

فَأَعَاضَهَاكَ اللهُ كَى لاَ تحْزَنَا

الغزالة : الشَّمس .

يقول المُتنبِّى لممدوحه : خَلَت البلاد من الشمس فى وقْتِ لَيْلِها ؛ فجَعَلَكَ اللهُ لهَا عِوَضَاً عن الشَّمس ؛ لكيلا تحزن البلاد على فراق ضوءِ الشَّمس.

قال النُّحَاة : إذا اجتمع ضمير المُخاطب والغائب ؛ فالواجبُ تقديم ضمير المُخاطب على ضمير الغائب ؛ وهذا ما نصَّ عليه سيبويه .

وكان على المُتنبِّى أن يقول : ((فأعاضَكَها)) بدل ((أعَاضَهَاكَ)) ؛ ولكن ضرورة الشِّعر ألجأته إلى ما قال .

بَيْدَ أنَّ العبَّاس مُحَمَّد بن يزيد المُبَرِّد يجُيز ما فعل المُتنبِّى .

٥ ـ قول الشَّاعر :

انْظُرَا قَبْلَ تَلُومَانِى إِلَى

طَلَلٍ بَيْنَ النَّقَا والْمُنْحَنَى

فحَذَفَ ((أن)) النَّاصبة لفعل ((تَلُومَانى)) وأبْقَى النَّصْبَ فى الفعل ؛ إذ حذف النُّون .

الطَّلَل : ما بَقِىَ من آثار الدِّيار .

النَّقَا ؛ والْمُنْحَنَى : اسْمانِ لِمَوْضِعَيْن .

٦ ـ قول الشَّاعر :

وَمَا نُبَالِى إِذَا مَا كُنْتِ جَارَتِنَا

أَلاَّ يُجَاوِرَنَا إلاَّكِ دَبَّارُ

فجاء بالضمير المُتَّصل بعد ((إلاَّ)) ؛ والأصل أن يقول : إلاَّ إِيَّاك ؛ ولكن خالف القاعدة لضرورة الشِّعر .

....

٣ ـ التعقيدُ اللفظيُّ :

ويكون بجعل الكلمات فى جُملة الكلام مُرتَّبةً على غير الترتيب الذى يقتضيه نظام الكلام وتأليفه فى اللِّسان العربىِّ .

كتقديم الصفة على الموصوف ؛ والصلة على الموصول ؛ وكالتشتيت فى الرَّوابط بين عناصر الجُملة الواحدة ؛ أو بين عناصر الْجُمَل فى الكلام الواحد.

وهذا العيب أشدُّ نكارةً وَبُعْدَاً عن فصيح الكلام من عيب ((ضَعْفِ التَّأْليف)) ؛ ولا يُغْنِى عن ذكره وبيانه ذكْرُ عيْبِ ((ضَعْفِ التَّأْليف)) وَإِنْ كان الصنفان يلتقيان فى كون كُلٍّ منهما يخُالِفُ نظام الكلام فى اللِّسان العربىِّ ؛ لأنَّ ((ضعف التأليف)) قلَّما يُؤدِّى إلى ما يُسِيءُ فى الدلالة ؛ بل هو مُجرَّد خُروجٍ عن المشهور من فصيحِ كلامِ العرب .

أمَّا التعقيدُ اللفظيُّ ؛ ففى الغالب يُؤدِّى إلى : الإِلْغَاز ؛ أو الغُمُوض ؛ أو التَّشويش ؛ أو الدِّلالة على معانٍ غَيْرِ مُرادةٍ.

والكلام المَعِيبُ بعَيْبِ ((التعقيد اللَّفظىّ)) مرفوضٌ غَيْرُ مقبولٍ عند أهل البيان ؛ لأنَّهُ يُفْضِى إلى اختلال المعنى المُراد واضطرابه ؛ وذلك مُبَاينٌ

للفصاحة الَّتى تقُومُ على الإبانةِ وتوضيح المعانى المُرادة .

قال العَتَّابِيُّ : ((الألفاظُ أَجْسَادٌ ؛ والْمَعَانِى أرواح ؛ وإِنَّما نَراها بَعَيْنِ القُلُوب ؛ فَإِذا قَدَّمْتَ مِنْهَا مُؤَخَّرَاً ؛ أَوْ أَخَّرْتَ مِنْهَا مُقَدَّمَاً : أَفْسَدْتَ الصُّورَةَ ؛ وغَيَّرْتَ الْمَعْنَى ؛ كَمَا لَوْ حُوِّلَ رَأْسٌ إلى مَوْضِعِ يَدٍ ؛ أَوْ يَدٌ إلَى مَوْضِعِ رِجْلٍ : فإنَّ الْخِلْقَةَ تَتَحوَّلُ ؛ والْحِلْيَةَ تَتَغَيَّر .)) .

قالوا : والفرزدق أكثر من استعمل التعقيد اللفظىَّ فى شعره ؛ وكأنَّه كان يَقْصِدُ إلى ذَلِكَ ؛ لأنَّه لا يجرى على لسانِ عربىٍّ إلاَّ مُتكلَّفاً مَصْنُوعاً ؛

والفرزدقُ عربىٌّ أصيلٌ لا يشكو من عُجْمَةٍ حتَّى تُؤثِّر عليه .

ـ الأمثلة :

١ ـ من أمثلة التعقيد اللَّفظىِّ قول الفرزدق يمدحُ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومىَّ خالَ هشام بن عبد الملك :

وَمَا مِثْلُهُ فِى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكَاً

أَبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

أى : وما مِثْلُ إبراهِيم فى النَّاسِ حىٌّ يُشبهه فى فضائله غير مَلِكٍ أَبُو أُمِّهِ أبوه .

أصْلُ ترتيب الكلام : وما مثله فى النَّاس حىٌّ يُقاربُه إلاَّ مُلَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوه ؛ فقَدَّمَ وأَخَّرَ فى الكلمات ؛ فألْغَزَ إلغَازاً سَيِّئاً .

٢ ـ وقولُ الْفَرَزْدَق أيضاً يمْدَحُ الوليد بن عبد الملك :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِن مُحَارِبٍ

أَبُوهُ وَلاَ كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ

يُريد : إلى مَلِكٍ أَبُوه ليستْ أُمُّه مِنْ مُحَارِبٍ ؛ فقدَّم وأخَّرَ ؛ فأبْهَمَ المعنى وألْغزَ وأفْسَد .

٣ ـ ومن أقبح أمثلة هذا التعقيد اللفظيّ : قول أحدهم يصِفُ دياراً درَسَت وعفَت آثارُها :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطٍّ بَهْجَتِهَا

كَأَنَّ قَفْرَاً رُسُومَهَا قَلَمَاً

أى : فأصبَحَتْ بعد بَهْجَتِهَا قَفْرَاً ؛ كأنَّ قَلَمَاً خطَّ رُسُومَها.

....

٤ ـ التعقيدُ المعنويُّ :

ويكون باستخدام لوازم فكريَّة بعيدة ؛ أو خفيَّة العلاقة ؛ أو استخدام كنايات من الْعَسيرِ إدراكُ المراد منه ؛ لعدم اقترانها بما يُشير إلى دِلالاتها المُرادة ؛ فَيَنْجُم عَنْهُ خفاءُ دِلالة الكلام ؛ وَصُعوبَةُ التوصُّلِ إلى معرفةِ المُراد منه من قِبَلِ أهل الفكر والاستنباط ؛ أو منْ قبَل المُخاطبين به إذا كان المُخاطبون به دُون مستَوى أهْلِ الفكر والاستنباط.

ـ الأمثلة :

١ ـ ذكروا من الأمثلة على التعقيد المعنوىِّ قولَ العبَّاسِ بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا

وَتَسْكُبُ عَيْنَاىَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

أى : سأطْلُبُ بُعْدَ الدَّار عنكم وأتحمَّلُ آلامَ الفراق وأصْبِرُ عليه ؛ لأنَّ عاقبة الأَلم والصبر الفرج ؛ وحين يأتى الفرجُ يكون قُرْبٌ دائمٌ ؛ ووصلٌ مُستمرٌّ مصحوبٌ بسرورٍ لا ينقطع.

وقد أبعد فى هذِه الكناية ؛ لكثرة لوازمها الذِّهنيَّة التى لا تُدْرَكُ إلاَّ بإجْهادٍ ذهْنِىٍّ ؛ على أنَّ هذا المعنى حَسنٌ ؛ طرقَهُ الشُّعراء والأُدباء وأهل الفكر ؛ منه ما أجاب به الرَّبيع بن خُثَيْم وقد صلَّى ليلةً حَتَّى أصْبَح ؛ إذْ قيل له : أتْعَبْتَ نفْسَكَ؟! ؛ فقال : راحَتَهَا أطْلُبُ ؛ أى : أطلبُ راحَتَها الدَّائمة يوم الدِّين بإتْعَابِها فى العبادة فى الدُّنيا .

ونظيره فى المعنى قول أبى تَمَّام :

أَآلِفَةَ النَّحِيبِ كَمِ افْتِرَاقٍ

أَلَمَّ فَكَانَ داعِيَةَ اجْتِمَاعِ

وقول عُرْوَة بن الورد :

تَقُولُ سُلَيْمَى : لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا

وَلَم تَدْرِ أَنِّى لِلْمُقَامِ أُطَوِّفِ

لكنَّ العبَّاس بن الأحنف عبَّر بعد ذلك بجُمُود العَيْنِ كنايةً عن حالَةِ السُّرُورِ التى سَيَنالُها حينما يأتى الفَرجُ بالوصْلِ بَعْدَ كثرة البُكاء ؛ فى حين أنَّ جُمُودَ العين يُعبَّرُ بِهِ كنايةً عن شُحِّهَا بالدُّموع عنْدَ حَاجةِ النَّفس إلى البُكاء ؛ ليكون فى البُكاءِ تخفيفٌ مِن آلاَم النَّفس بالفراق ؛ أو مِن الحُزن والكَمَدِ والتَّعَبِ والنَّصب ؛ فالشُّحُّ بالدَّمع يزيد فى آلام النَّفس ؛ وَلَيْسَ من العلامات الدَّالاَّت

على سُرورهَا حتَّى يُكنَّى به عنه ؛ ومن هُنا رَأَوْا أنَّ فى كلامِهِ تعقيداً معنويًّا.

٢ ـ ويُمْكنُ أن نُمثِّل للتعقيد المعنوىِّ بأن نقُول : فَتَح السلطانُ أَبْوابَ السُّجُون.

ونحن نقصد بهذه العبارة أنَّه نَشَر جُنْدهُ لُملاحقة خُصومه حتَّى يُودِعهم فى السُّجُون ؛ مع أنَّ المُتبادر المُتعارف فى مثل هذه العبارةِ أن تُقالَ لتكونَ كنايةً عن أنَّه أخرج المساجين منها بإصدار عفوٍ عامٍّ عنهم ؛ فاعتبارُهَا كنايةً عن

المعنى المُضادِّ لهذا المعنى تعقيدٌ معنوىٌّ .

وقِسْ على هذا.

....

ج ـ فَصَاحَةُ المُتَكَلِّم :

المُتكلِّم الفصيح : هو من كان كلامه فصيحاً ؛ وكان ذا ملكةٍ يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بكلامٍ فصيحٍ ؛ دُون تَلَعْثُمٍ ؛ ولا تلكُّؤٍ ؛ فما شاء من معنى استطاع التعبير عنه بيُسْرٍ وسُهولةٍ ؛ وبكلامٍ فصيح المفردات ؛ وفصيح الْجُمَل والتَّراكيب.

ومع الهِبَة الفطريَّة لا يكون المُتَكَلِّم فصيحاً فى اللِّسانِ العربىِّ ؛ حتَّى يكون مُلمَّاً باللُّغة العربيَّة ؛ عالماً بقواعد نحوها وصرفها ؛ واسع الاطِّلاع على مُفرداتها ومعانيها الدقيقة ؛ كثير النَّظر فى كُتُب الأدب ؛ مُطَّلِعَاً على أقوال كبار الفُصحاء ؛ له دراية بأساليب العرب فى شُعُورهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم ؛ حافظاً لطائفةٍ جَمَّةٍ من عُيُون كلام فُصائحهم وبُلغائهم من أهل النثر وأهل الشِّعر ؛ وأن يُمارس موهِبَتَهُ بالتطبيقات العمليَّة ؛ حتَّى يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده وما يجُول فى نفسه من معانٍ بكلامٍ فصيحٍ.

*-الفَصْلُ الثَّانِى : البَلاغَة

١ ـ البلاغة فى اللُّغة :

البلاغة عند أهل اللُّغة هى حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المُراد .

والرَّجُل البليغ هو من كان فصيحاً حسَنَ الكلام ؛ يَبْلُغُ بعبارة لسانه غايةَ المعانى الَّتى فى نفسه ؛ ممَّا يُرِيد التعبير عنه وتوصيلَهُ لمن يُرِيد إبلاغه ما فى نفسه .

وأصل مادَّة الكلمة فى اللُّغة تدُور حول وُصُولِ الشَّىء إلى غايته ونهايته ؛

أو إيصال الشىء إلى غايته ونهايته .

تقول ـ بَلَغَ الشَّىءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وَبَلاغاً : إذا وصل وانتهى إلى غايته .

وتقول ـ أَبْلَغْتُ الشَّىْءَ إِبْلاغاً وَبَلاَغاً ؛ وَبَلَّغْتُهُ تَبْلِيغاً : إذا أوصلته إلى غايته ونهايته.

وَبَلَغَ الغُلاَمُ ؛ وَبَلَغَت الجَارِيَةُ : إذا وصَلا إلى انتهاء مرحلة ما دُون التكليف ؛ ودخلا فى مرحلة التكليف ؛ ويكون ذلك باحتلام الغُلام وحيض الجارية ؛

يُقَال : ذَكَرٌ بَالِغٌ ؛ وأُنثى بَالِغٌ وَبَالِغَةٌ .

والأمر البَالِغ : هو الأمر الذى وصل إلى غايته فكان نافذاً .

والبلاغَةُ تكون وصفاً للكلام ؛ ووصفاً للمُتكلِّم .

....

٢ ـ بَلاغَةُ الكَلامِ فِى الاصْطِلاح :

هى مُطابقة الكلام لمُقتضى حَال من يُخَاطبُ به ؛ مع فصاحة مُفرداته وجُمَله .

فيُشترط فى الكلام البليغ شرطان :

ـ الشَّرط الأول : أن يكون فصيح المُفردات والجُمل.

ـ الشَّرط الثانى : أن يكون مُطابقاً لمُقتضى حال من يُخَاطبُ به.

ولَّما كانت أحوال المُخاطبين مختلفة ؛ وكانت كلُّ حالةٍ منها تحتاج طريقةً من الكلام تُلائمها : كانت البلاغة فى الكلام تستدعى انتقاء الطَّريقة الأكثر مُلاءمة لحالة المُخاطب به ؛ لبُلُوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمْثلِ المرجُوِّ.

ـ الأحوال التى تستدعى اختلافاً فى طرائق الكلام وأساليبه :

أمَّا الأحوال التى تستدعى اختلافاً فى طرائق الكلام وأساليبه ؛ فتكاد لا تُحْصَر.

١ـ فمنها ما يستدعى من الكلام إيجازاً.

٢ ـ ومنها ما يستدعى من الكلام بَسْطَاً مُتوسِّطاً.

٣ ـ ومنها ما يستدعى من الكلام بَسْطَاً مُطوَّلاً.

٤ ـ ومنها ما يستدعى خطاباً بصُورة مُباشرة .

٥ ـ ومنها ما يستدعى خطاباً بصُورة غير مُباشرة .

٦ ـ ومنها ما يستدعى تنكيراً ؛ أو يستدعى تعريفاً.

٧ ـ ومنها ما يستدعى إطلاقاً ؛ أو يستدعى تقييداً.

٨ ـ ومنها ما يستدعى ذِكراً ؛ أو يستدعى حذفاً.

٩ ـ ومنها ما يستدعى وصلاً بحرف العطف ؛ أو يستدعى فصلاً.

١٠ ـ وخطابُ الذَّكيِّ يُخَالف خطاب الغبيِّ .

١١ ـ وحال الوعظ يستدعى خطاباً غير حال البيان العلميِّ.

١٢ ـ وحال الدُّعاء والتماس مطلوبٍ يستدعى خطاباً غير حال التكليف من ذى سُلطان.

١٣ ـ وخطاب أهل العلم والمعرفة يخالف خطاب الذين لا علم لديهم.

١٤ ـ وخطاب المُلوك والأُمراء والرُّؤساء يخالف خطاب العامَّة .

١٥ ـ وخطاب أهل الحضر يُخَالف خطاب أهل البداوة وأهل المَدَر.

١٦ ـ وَلُكِلِّ أهل صنعةٍ خطابٌ يُلائم صناعتهم.

١٧ ـ والصِّغارُ وأحْداثُ الأسنان لَهُم ألوان من الخطاب تُلائم حداثتهم وَصِغَر أَعْمَارِهم.

١٨ ـ إلى غير ذلك من أصناف المُخاطبين ؛ وأحوالهم النفسيَّة والاجتماعيَّة ؛ وأحوال المُتكلِّم ؛ وظُروف الكلام .

واختيار الأُسلوب من الكلام الملائم للمخاطب أو الأكثر ملاءمة له ؛ يحتاج فطنةً عاليةً ؛ وذكاءً حادًّا ؛ وخبرات كثيرات بخطاب الناس.

ويُلْحَقُ بمُطابقة الكلام لمُقتضى حال المُخاطب وجوهٌ أُخَرُ كثيرةٌ تُورثُ الكلامَ حُسْنَاً .

وَكُلَّما كان الكلام مع فصاحة مُفرداته وجُمله أكثر مُطابقة لحال المُخاطب وتأثيراً فى نفسه ؛ كانَ أعلَى حُسْنَاً ؛ وأرفَعَ منزلةً فى مراتب البلاغة ودرجاتِها.

وتتنازلُ الدَّرجات وتنحطُّ بمقدار بُعْدِ الكلام عن مُطابقة مُقتضى حال المُخاطب وضَعْفِ تأثيره فى نفسه .

وللكلام البليغ حدٌّ أعْلَى رفيعٌ ؛ وهو حدُّ الإعجاز ؛ وما يَقْربُ منه.

ولَهُ حدٌّ أسْفَلُ مُنْحطٌّ ؛ إذ نزلَ عنْهُ درجَةً واحدةً الْتحقَ عند البُلغاء بأصواتِ الحيوانات.

وبين الحَدِّ الأعلى وَالحَدِّ الأسفل مراتب ودرجات كثيرات يتعذَّرُ على الناس إحصاؤها.

....

٣ ـ بَلاغَةُ المُتَكَلِّمِ فِى الاصْطِلاح :

هى ملكَةٌ ـ أى : صفةٌ ثابتةٌ مُستقرَّةٌ فى ذاتِ المُتكلِّم ـ يستطيع بها تأليف كلامٍ بليغٍ.

ولَّما كان كُلُّ كلامٍ بليغٍ لابُدَّ أن يكون فصيح المُفردات والْجُمَل ؛ كان كُلُّ كلامٍ بليغٍ كلاماً فصيحاً ؛ وَكان كُلُّ مُتكلِّمٍ بليغٍ مُتكلِّماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً وَلا يكون بليغاً ؛ لأنَّ الفصاحة أعمُّ ؛ والبلاغةَ أخصُّ دائماً ؛ فكلُّ بليغٍ فصيحٌ ـ كلاماً أَو مُتكلِّماً ـ ؛ وليسَ كُلُّ فصيحٍ بليغاً ؛ فالكلام الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتَّى يكون مُطابقاً لمُقتضى حالِ المُخاطب به.

....

٤ ـ عَنَاصِرُ البَلاغَةِ فِى الاصْطِلاح :

ممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ البلاغة ترجع فى أُصُولها العامة إلى تحقُّق العناصر السِّتَّةِ التالية :

ـ العُنصر الأول :

الالتزام بما ثبت فى متن اللُّغة ؛ وقواعد النَّحو والصرف ؛ واختيار الفصيح من المُفردات والْجُمَل والقواعد .

ـ العُنصر الثانى :

الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المُراد .

ـ العُنصر الثالث :

الاحتراز عن التعقيد فى أداء المعانى المُرادة ؛ سواء من جهة اللَّفظ أو من جهة المعنى .

ـ العُنصر الرابع :

انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة ؛ الَّتى يُدْرِكُ جمالَها الحسُّ المُرهفُ والذَّوْقُ

الرَّفيع لدى البُلغاء .

ـ العُنصر الخامس :

تصيُّد المعانى الجميلة ؛ وتقديمها فى قوالب لفظيَّة ذات جمال .

ـ العُنصر السَّادس :

تزيين الكلام بالمُحسِّنات التى تَسْتَثِيرُ إعجاب المُخاطَبين .

والمُحسِّنَاتُ التى تُزَيِّنُ الكلامَ وتَزِيدُه جمالاً لا تُحْصَر ؛ وباستطاعة الموهوبين أن يبتكروا فيها دواماً أشياء جديدة لم يتوصَّل إليها البُلغاء السَّابقون من الناس .

- تَمْهِيد :

- فَضْلُ عِلْمِ البَلاغَة

قَالَ أبو هلال العسكريُّ ((ت نحو ٣٩٥هـ)) (١)[٤] :

((اعلم أنَّ أحقَّ العُلُوم بالتعلُّم ؛ وأولاها بالتحفُّظ ـ بعد المعرفة بالله جَلَّ ثناؤه ـ : علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ؛ الذى به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى ؛ النَّاطق بالحق ؛ الهادى إلى سبيل الرُّشد ؛ المدلول به على صدق الرسالة وصحَّة النُّبوَّة ؛ التى رفعت أعلام الحق ؛ وأقامت منار الدِّين ؛ وأزالت شُبَهَ الكُفر ببراهينها ؛ وهتكت حُجُبَ الشَّكِّ بيقينها .

وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ؛ وأخلَّ بمعرفة الفصاحة : لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّهُ الله به من حُسْنِ التأليف ؛ وبراعة التركيب ؛ وما شحنه به من الإيجاز البديع ؛ والاختصار اللطيف ؛ وضمَّنه من الحلاوة ؛ وجلَّله من رونق الطَّلاوة ؛ مع سُهولة كَلِمِهِ وجزالتها ؛ وعُذوبتها وسلاستها ؛ إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ؛ وتحيَّرت عقولهم فيها : وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه ؛ وقُصورهم عن بُلوغ غايته ؛ فى حُسْنِهِ وبراعته ؛ وسلاسته ونصاعته ؛ وكمال معانيه ؛ وصفاء ألفاظه .

---

[٤] (١) ـ فِى صدرِ كتاب ((الصناعتين)) ؛ تحقيق : على محمد البجاوى ؛ ومحمد أبو الفضل إبراهيم ؛ المكتبة العصريَّة ببيروت/عام النشر : ١٤١٩ هـ .

وقبيحٌ لعمرى بالفقيه المُؤْتَمُّ به ؛ والقارى المهتدى بهديه ؛ والمتكلِّم المُشار إليه فى حُسْنِ مُناظرته ؛ وتمام آلته فى مُجادلته ؛ وشدَّة شكيمته فى حِجَاجِه ؛ وبالعربىِّ الصَّليب ؛ والقُرشىِّ الصَّرِيح : ألاَّ يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلاَّ من الجهة التى يعرفه منها الزِّنجىُّ والنَّبطىُّ ؛ أو أن يستدلَّ عليه بما استدلَّ به الجاهلُ الغبىُّ.

فينبغى من هذه الجهة أن يُقدَّمَ اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ؛ إذ كانت المعرفة بصحة النُّبوَّة تتلو المعرفة بالله ـ جَلَّ اسْمُهُ ـ .

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ؛ ومناقب معروفة ؛ منها : أنَّ صاحب العربيَّة إذا أخلَّ بطلبه ؛ وفرَّط فى التماسه ؛ ففاتته فضيلته ؛ وعلقت به رذيلة فوته ؛ عَفَّى على جميع محاسنه ؛ وعَمَّى سائر فضائله ؛ لأنه إذا لم يُفرِّق بين كلام جيِّدٍ وآخر رَدِى ؛ ولفظ حسنٍ وآخر قبيح ؛ وشعرٍ نادرٍ وآخر بارد ؛ بان جهله ؛ وظهر نقصه . وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة ؛ أو يُنشىء رسالة ـ وقد فاته هذا العلم ـ ؛ مزج الصَّفو بالكَدِر ؛ وَخَلَطَ الغُرَرَ بِالعَرَر ؛ واستعمل الوحشىَّ العَكِر ؛ فجعل نفسه مهزأةً للجاهل ؛ وعبرةً للعاقل ؛ كما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرُّؤساء : ((مكركسة تربوتا ومحبوسة بسرّيتا)) !! ؛ فدلَّ على سخافة عقله ؛ واستحكام جهله ؛ وضرَّهُ الغريب الذى أتقنه ولم ينفعه ؛ وحطَّه ولم يرفعه ؛ لَمَّا فاته هذا العلم ؛ وتخلَّف عن هذا الفن .

وإذا أراد أيضاً تصنيف كلامٍ منثور ؛ أو تأليف شعرٍ منظوم ؛ وتخطَّى هذا العلم : ساء اختياره له ؛ وَقَبُحَت آثاره فيه ؛ فأخذ الردىء المرذول ؛ وترك الجيِّد المقبول !! ؛ فدلَّ على قُصور فهمه ؛ وتأخُّر معرفته وعلمه .

وقد قيل : اختيار الرَّجُل قطعة من عقله ؛ كما أنَّ شعره قطعة من علمه .

وما أكثر من وقع من عُلماء العربيَّة فى هذه الرذيلة !! ؛ منهم الأصمعىُّ فى اختياره قصيدة المُرَقَّش :

هَل بِالدِّيَارِ أَن تُجِيبَ صَمَمْ

لَو أَنَّ حَيًّا نَاطِقَاً كَلَّمْ ؟!!.(١) .

ولا أعرف على أىِّ وجهٍ صرف اختياره إليها؟!! ؛ وما هى بمستقيمة الوزن ؛ ولا مُونقة الرَّوىِّ ؛ ولا سَلِسَة اللفظ ؛ ولا جيِّدة السَّبك ؛ ولا متلائمة النَّسج!! وكان المُفضَّل يختار من الشِّعر ما يقلُّ تداول الرُّواة له ؛ ويكثر الغريب فيه ؛ وهذا خطأٌ فى الاختيار ؛ لأنَّ الغريب لم يكثر فى كلامٍ إلاَّ أفسده ؛ وفيه دلالة

---

(١) ـ الرِّواية فى ((المُفَضَّلِيَّات)) للمفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضَّبِّىِّ ((ت نحو سنة ١٦٨هـ)) ؛ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ؛ وعبد السلام محمد هارون ؛ دار المعارف = القاهرة ؛ (صـ : ٢٣٧) :

هلْ بالدِّيارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمْ

لو كانَ رَسْمٌ نَاطِقاً كلَّمْ .

الاستكراه والتكلُّف .

وقال بعض الأوائل : تلخيص المعانى رفق ؛ والتشادق من غير أهله بغض ؛ والنظر فى وجوه الناس عىٌّ ؛ ومسُّ اللِّحية هلل ؛ والاستعانة بالغريب عجز ؛ والخروج عمَّا بُنِىَ عليه الكلام إسهاب .

وكان كثيرٌ من عُلماء العربيَّة يقولون : ما سمعنا بأحسن ولا أفصح من قول ذى الرُّمَّة :

رَمَتْنِىَ مِىٌّ بِالهَوَى رَمْىَ مُمضِعٍ

مِنَ الوَحْشِ لوطٌ لَم تُعِقْهُ الأَوَانِسُ

بِعَيْنَيْنِ نَجْلاوَيْنِ لَم يَجْرِ فِيهِمَا

ضمانٌ ؛ وَجِيدٌ حُلِّىَ الدُّرَّ شَامِسُ

وهذا ـ كما ترى ـ كلامٌ فجٌّ غليظ ؛ ووخمٌ ثقيل ؛ لا حظَّ له من الاختيار.))[٦] (١)

(١) ـ انتهت مقالةُ أبى هلال .